والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرَّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصى ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثانى فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية فى قوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا[1] إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصى أنْ نخوضَ فى ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

فهذه القضية التى ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التى كذبوها على الله ، من أين أتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْهَا ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتى ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. (٥)﴾ [الكهف]

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾ [مريم] . أى : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أى : عَظُمَتْ وتناهتْ فى الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو فى ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عبَّرتْ عن قولهم ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ ﴾ [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ۝ ﴾ [المؤمنون] فسمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [آل عمران] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها - أى :

لا نقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »[1] .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿إن يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبًا .. ۝٥﴾ [الكهف] أى : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذِهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتى النسبة في ذهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال فى خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمَّى نسبة ذهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شَخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائى الذى لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث فى المستقبل ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . وفى رواية « تلك محض الإيمان » قال النووى فى شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمى يقول : الصدق الحقيقى أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبِر .

وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله إنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادى . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِىء القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمَّا قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهى نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف]

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ما يلاقى من متاعب وعناد وسَفَه فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾

ومعنى : ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. (٦)﴾ [الكهف] أى : تجهد نفسك فى دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفى الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه

حَمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيِّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه (أسَفاً) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : ﴿ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (٨٦) ﴾ [طه]

وقد حدَّد الله تعالى مهمة الرسول وهي البلاغ ، وجعله بشيراً ونذيراً ، ولم يُكلِّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففي الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله ﷺ ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾

وكأن هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة - إذن - قريبة فلا داعيَ لأنْ يُهلك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقي ؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشيء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا .. (٧) ﴾ [الكهف]

أى : كل مـا على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يـبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف]

فـإياك أنْ يأخـذك هذا الزخـرف ؛ لأنـه زَهْر سـرعـان مـا يذبل ويصير حُطاماً .

وقـوله : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف] البـلاء يعنـى : الاخـتـبـار والامتـحان . وليس المصيـبة كما يـظن البعض ؛ لأن المصيـبة تكون على مَنْ يخـفق فى الاختـبار ، والابتـلاء لهم من الله مع علمه تعـالى بأمـرهم وما سـيحـدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف مـعرفـة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبـه هذه المسألة بالتلميـذ الذى يتنبـأ له أسـتاذه بالفشـل لمـا يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكـم من خلالهـا ، فإذا مـا دخـل التلميذ الاختبار فشـل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن نلغى الاخـتبـارات فى مدارسنا اعـتمـاداً على خـبرة المعلم بتـلاميـذه ؟ لا بُدَّ من الاختبـار ليقوم شـاهداً واقعـياً على مَنْ يخفق .

إذن : معنى : ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : بلاء شـهادة منهم على أنفسـهم .

---

(١) الهـشيم : الحطب أو الخـشب المحطّم . وهشَم الشىء الـيابس : كسـره . وهشم الخـبز : كسره وفتّه . [القاموس القويم : ٢/٣٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التى تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و ﴿ جُرُزًا ﴾ هى الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ۝٢٧ ﴾ [السجدة]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لى أختبرهم ، وأُجَازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أهل الكتاب فى المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه فى كتبهم .

---

(١) اختلف الناس فى الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبى فى تفسيره :
– الرقيم : واد . قاله مجاهد .
– الرقيم : الصَّخرة التى كانت على الكهف . قاله السدى .
– الرقيم : كلبهم . قاله أنس بن مالك والشعبى .
– الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قاله ابن عباس والفراء .
وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٨٦ – ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبى الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبيٍّ نتبعه ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؛ لذلك رغب أهل مكة فى سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا فى الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذى طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟[1]

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً »[2] وجاء غد وبعد غد ومرَّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شىء من أمر هذه الأسئلة ، فشقَّ ذلك على رسول الله وكَبُر فى نفسه أنْ يعطى وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحى على رسول الله فى هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]

وهذه الآية فى حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته فى البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠٧٦/٥) وعزاه لابن إسحاق

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام فى السيرة (٣٢١/١ - ٣٢٣) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس فى ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شىء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدِّل له .

فكأن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف] تربية للأمة فى شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّى ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأى على رأى حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته ؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ(١) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء]

فكان حكم داود عليه السلام فى هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التى أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء] ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء]

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً

---

(١) النَّفْش : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فترعى من غير علم راعيها [لسان العرب - مادة : نفش] . ونفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢ / ٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبيّ الله سليمان في هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور في حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعزّ من أيّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعل القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته ﷺ في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذي بلغنا : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف] وهو الذي بلَّغنا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾﴾ [التحريم]

وهو الذي بلغنا في شأن غزوة بدر : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ.. ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذي لا يُخفِي شيئاً .

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكّروا في صدْقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرِّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به ، وليس في قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعي البعض أن قول إنْ شاء الله يلغي التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطِّط كما تريد ، ودَبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهي في حَدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعلِّق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه في كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باقٍ لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه طارىء ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التي نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف]

﴿أَمْ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ﴿١٦﴾﴾ [الرعد]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هى العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿الكَهْف﴾ : الفَجْوة فى الجبل و (الرقيم) الشىء المرقوم أى : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف] أى : ليست هذه هى العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات فى تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى :

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

(أَوَىٰ) من المأوى ، وهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفتْيةُ) جمع فتى ، وهو الشاب فى مُقْتبل العمر ، والشباب هم مَعْقد الآمال فى حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالى من أىِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (١٠) ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف] أى : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غُطِّيَتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاَّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَـدَرِ بنفْسـكَ تُعنف لاَ بـالقَـدَر
وَيَا ضَـارِبا صَـخْرَةً بالعَصَـا ضَرَبْتَ العَصَا أمْ ضَربْتَ الحَجَر ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ .. ⑪ ﴾ [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشىء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعكّر صَفْوه شىء ، والنوم هو الراحة التامة التى تطغى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إدراك تُؤدّى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑦⑧ ﴾ [النحل]